# الصياد الذي حرر إيطاليا!

كانت أمواج البحر الثائرة أول ما تفتحت عليه عيناه من صور الحياة، فلا عجب إن كان البحر والثورة هما أبرز الخطوط الرئيسية في لوحة حياته الخالدة، التي إمتدت ثلاثة أرباع قرن من الزمان، منذ مولده في «نيس» بجنوب فرنسا سنة ١٨٠٧، حتى أسلم روحه فيها سنة ١٨٨٢، وكانت تلك الأمواج الثائرة نفسها آخر ما رأته عيناه!

وما أبعد الفرق بين حال «جوسيبي غاريبالدي» في أخريات أيامه، حيث كان يتطلع إلى تلك الأمواج من نافذة منزله الجميل في الحديقة المزدهرة الغناء، وبين حاله في مطلع حياته وهو يتطلع إلى الأمواج في المنطقة نفسها من نافذة الكوخ الوضيع الذي نشأ فيه هو وأخوته مع والدهم الصياد الإيطالي الفقير! هناك في ذلك الكوخ، كان الطفل «جوسيبي» كثيرًا ما يشعر بالألم الممض من عضات البرد والجوع ورهبة الخوف من المستقبل المظلم المجهول، ومن الظلام الموحش الذي يمتد فيما وراء الأفق، وتلك الصخور والممرات الجبلية المحيطة بالكوخ!

## ميلة للمغامرات

وقد طالما حلق خياله حينذاك في جو القصص العجيبة والمغامرات المثيرة التي كان البحارة يروونها عن رحلاتهم البعيدة الخطيرة، وود لو يتاح له أن يكون من أبطال تلك الرحلات، وأن تروي عن مغامراته أمثال تلك

القصص والأساطير. ولكن هذه الأمنية كانت أكبر من أن تحققها له ظروفه التعسة التي لازمت نشأته، فبقي حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره، دون أن يستطيع القيام برحلة خاصة به، يمضي فيها حيث يشاء، ويغامر كما يشاء، على أن رحلته الخاصة الأولى لم تكن على شيء من التوفيق، وتحول بعدها إلى قراءة الكتب العلمية والرياضية، وإلى الإستزادة من المعرفة باللغات المختلفة التي يعرفها قدماء البحارة، ثم لم تمض على ذلك ثلاث سنوات حتى خرج من تلك العزلة ليبدأ أولى رحلاته البحرية الحقيقية، بوصفه قائداً مساعداً للسفينة «كورتيزي»، التي كانت تتأهب للقيام برحلة تجارية إلى موانيء البحر الأسود!.

كان «جوسيبي غاريبالدي» قد شاهد «روما»، في إحدى الرحلات التي صحب والده فيها. وقد راعته آثار المدينة القديمة الخالدة في العاصمة الإيطالية حينذاك، وإستطاع –وهو الصبي الصغير الفقير– أن يلمس الفارق العظيم بين حياة الإيطاليين القوية الغنية في ذلك الماضي البعيد السعيد، وبين حياتهم الراهنة الذليلة البائسة، تحت نير الإستعمار والطغيان!

## خطر القراصنة

وشاء القدر أن تتعرض السفينة «كورتيزي في رحلتها لخطر القراصنة الذين كانوا منتشرين في تلك المناطق البحرية حينذاك وقد أبلى «جوسيبي» وبحارة السفينة أحسن البلاء في الدفاع عن أنفسهم وعما تحمله سفينتهم من بضائع ومؤن، ولكن القراصنة عاودوا الهجوم عليها ثلاث مرات في

عرض البحر، وتمكنوا في المرة الثالثة من التغلب على المدافعين عنها بعد أن قتلوا وجرحوا كثيرين منهم، وهكذا نهبوا كل ما كان فيها حتى قلاعها وآلاتها، وتركوا الباقين من بحارتها على ظهرها، مجردين من كل سلاح، بل مجردين من أي طعام أو شراب أو كساء!.

وكان الفتى «جوسيبي غاريبالدي» من هؤلاء المساكين الذين تركوا ليهلكهم البرد والظمأ والجوع، أو لتبتلعهم الأمواج مع سفينتهم المخربة المنهوبة، ولم يكن هناك أي بصيص من الأمل في نجاتهم من ذلك المصير الرهيب، لكنهم مع ذلك إستمروا يكافحون في سبيل الحياة، وكتب لهم أخيراً أن يصلوا بسفينتهم المحطمة إلى القسطنطينية حيث أسعفوا بالماء والغذاء والكساء، ورثى لهم بعض زملائهم من بحارة السفن الراسية بالميناء، فألحقوهم بالعمل معهم في تلك السفن، إلى أن تحين الفرصة لعودتهم إلى وطنهم سالمين!.

على أن «غاريبالدي» لم يستطع مشاركة زملائه في ذلك الحل لمشكلتهم، فقد وقع فريسة لمرض شديد، إضطره إلى التخلف في القسطنطينية، حيث أواه بعض المهاجرين الإيطاليين، وسهروا على تمريضه وعلاجه، حتى كتبت له النجاة من ذلك المرض وإلتحق بالعمل في سفينة تابعة لملك سردينيا!.

## إيطاليا الفتاة

أمضي «جوسيبي غاريبالدي» في عمله البحري الجديد زهاء خمس

سنين، طاف خلالها بكثير من بقاع العالم، وواجه كثيراً من العواصف والأخطار. ولكن حب الحياة البحرية بقي مسيطراً على قلبه، وفي الوقت نفسه كان عقله دائم التفكير في حال وطنه وما آل إليه من فقر وهوان، وفيما يمكن أن ينقذ هذا الوطن ويحرره من نير الظلم والطغيان!.

وعقد في ذلك الحين «مؤتمر فينا». وأخذ المؤتمرون المنتصرون يمعنون في تقطيع أوصال الوطن الإيطالي المغلوب على أمره، ويقتسمون مناطقه فيما بينهم، فكانت «لومبارديا» و«فينيسيا» من نصيب النمسا، وكانت «بارما» و«لوكا» من نصيب ماري لويز، وضمت صقلية بقسميها إلى فرديناند الثاني.

وعز على «غاريبالدي» أن يقف مكتوف اليدين إزاء هذه المظالم الفادحة التي نزلت بوطنه الحبيب، وكان على يقين من أن الموت أو السجن هما نصيب كل إيطالي تحدثه نفسه بالوقوف في وجوه الطغاة الأقوياء المنتصرين، أو المجاهرة بمعارضة ذلك التقسيم الذي قرروه في مؤتمرهم المذكور. لكنه رأى الموت والسجن أحب إليه من التسليم بذلك التقسيم المهين، ثم هداه بحثه هذا الأمر إلى المبادرة بالسفر إلى «جنوا» حيث إشترك في العمل مع محام شاب من أهلها هو «جوسيبي مازيني» كان قد أنشأ جمعية باسم «إيطاليا الفتاة» للعمل على إنقاذ البلاد وجعلها جمهورية حرة مستقلة.

وفيما كان القائدان الشابان يستعدان لبدء التنفيذ، وشى بهما خائن من أعضاء الجمعية إلى السلطات المحتلة، فتمكنت من إحباط تلك

المؤامرة، وإعتقلت كل من كانت لهم صلة بها ثم أرسلتهم إلى المشنقة.. ولكن «غاريبالدي» تمكن من النجاة بروحه، وفر متنكراً في ثياب ريفية عبر ممرات الجبال السويسرية، ثم تمكن من السفر على إحدى السفن إلى جنوب أمريكا ، حيث إنضم إلى مواطنيه المهاجرين في «ريو دي جانيرو». ولقى من تقديرهم ومساعدتهم له ما مكنه من شراء سفينة صغيرة أخذ يستغلها في التجارة على طول الساحل هناك!.

## الثورة من أجل الحرية

لم يكن «غاريبالدي» لتشغله غربته عن أهله ومواطنيه الغرباء في ديارهم، وقد تأصل في نفسه حب الحرية والثورة في سبيلها، حتى لو كانت هذه الحرية لشخص آخر أو لوطن غير وطنه. وعلى هذا ما كادت جمهورية «ريو جراندي» تثور على البرازيل لإسترداد حريتها، حتى إندفع إلى التطوع للإشتراك في هذه الثورة، وأعد سفينة حربية صغيرة لهذا الغرض، أطلق عليها اسم «مازيني» زميله في الجهاد، ودرب على العمل معه فيها نخبة من الثوار المجاهدين، وكللت مغامراتهم الأولى بنصر باهر، إذ تمكنوا من أسر سفينة معادية كبيرة وإستولوا على حمولتها الثمينة من النحاس، ولكن مغامرتهم التالية لم يقدر لها النجاح، وإنتهت بوقوعه ورجاله جميعاً في الأسر، بعد إصابته في المعركة بجرح بليغ.

وطال أمره شهوراً عديدة، قاسى فيها ألواناً من العذاب الشديد، لكنه ما كاد يظفر بحريته بفضل مساعي إحدى السيدات حتى خف إلى «يو جراندي» ليواصل كفاحه المجيد مع أبنائها الثائرين الأحرار؟.

وهناك في تلك المدينة التي إتخذها وطناً ثانياً، وجد الزوجة التي تليق بمجاهد ثائر حر مثله، وهي مجاهدة جميلة قوية الشخصية من أسرة عريقة، كما وجدت فيه هي فارس أحلامها المنشود، وهكذا كان «غاريبالدي» وزوجته «أنيتا» مثلًا أعلى للشريكين الوفيين المتعاونين في الحياة الزوجية، وفي ميدان الكفاح ضد الطغيان والإستبداد.

## في ميدان التحرير

رأى غاريبالدي بعد ذلك أن من حق أسرته الصغيرة عليه أن يتيح لها شيئاً من الراحة والهدوء، فإنتقل بها إلى مدينة «مونتفيديو» حيث إشترى منزلًا بسيطاً هناك، وأخذ يعمل في التدريس. على أنه لم يقطع صلته بإخوانه المجاهدين الأحرار أفراد الفرقة الإيطالية التي إشتهرت بمغامراتها الجريئة وأعمالها المجيدة في كفاح التحرير بجنوب أمريكا.

ولم يمض على ذلك قليل حتى كانت هذه الفرقة بقيادته قد برزت إلى القتال في ميدان جديد، هو ميدان النضال لتحرير جمهورية أورجواي. وسرت أنباء الفرقة مسرى الكهرباء حتى سمع العالم كله بأمرها وأعجب بها، وما كادت الحرب تنتهي بإنتصار جمهورية أورجواي حتى سارع شعبها إلى تكريم غاريبالدي وفرقته، وقرر منحه رتبة جنرال، ومنح فرقته قطعة كبيرة من الأرض ولكن غاريبالدي رفض في شمم وأباء أن يأخذ أي أجر أو مكافأة لقاء جهاده وفرقته وقال لمن ألحوا عليه في قبول تلك الهدية:

– إن قبولها يتنافى مع أول مبادئنا وهو الجهاد في سبيل الحرية، ولا شيء غير الحرية!

في ذلك الحين، كان غاريبالدي قد بلغ الحادية والأربعين من عمره، ومضت إحدى عشرة سنة على مغادرته وطنه الأول إيطاليا هرباً من المشنقة!.

وترامت إلى سبعة أنباء طريفة سارة، عن إستعداد «شارل ألبرت» ملك سردينيا لمنح شعبه حرية دستورية تساعده على التحرر من النير النمسوي الثقيل. فآمن الثائر الطريد أن قد حانت ساعة عودته لوطنه البعيد كي يستأنف العمل لتحريره، وإختار من أفراد فرقته ستة وخمسين رجلًا، أبحر بهم وبأسرته إلى «نيس» على سفينة أعدها لهذا الغرض وأطلق عليها اسم «الإسبيرانزا».. أي الأمل! وكان يرفرف فوق ساريتها علم سرديني صنعته زوجته من ملاءة بيضاء وقميص أحمر وحلة قديمة خضراء!.

على أن «شارل ألبرت» ملك سردينيا، خشي على عرشه من غاريبالدي ذي الميول الجمهورية المتطرفة، فرفض تطوعه للجهاد بفرقته في الكفاح مع شعبه ضد النمسويين.

وكانت الصدمة عنيفة قاسية، ولكن غاريبالدي ورجاله ما لبثوا قليلًا حتى وجدوا أمامهم ميداناً أرحب وأكرم لإبراز مواهبهم ومزاياهم، ففي ٢٨ من إبريل سنة١٨٤٩, أعلنت الجمهورية في روما نفسها، وهب شعبها يدافع عن إستقلاله وحريته، فسارع غاريبالدي إلى هناك، وإنضم وفرقته المشهورة إلى القوات الشعبية، للدفاع ضد الجيوش الجرارة التي أرسلها لويس نابليون من فرنسا وإمبراطور النمسا لتأييد البابا بيوس التاسع وإخماد ثورة الإيطاليين.

وإستمرت الحرب ثلاثة أشهر، ثبت فيها غاريبالدي وفرقته في النضال مع

شعب روما ثبات الجبال، وإنتقل القتال من شارع إلى شارع، ومن منزل إلى منزل، ولكن المجاهدين الأحرار كانوا أقل عدداً وعدة، وهكذا لم تستطع قوات الجمهورية الشعبية أن تواصل الصمود أمام الجيوش الفرنسية والنمسوية، فإستسلمت في النهاية، ودخل البابا روما مرة أخرى ليستأنف حكم شعبها بقوة الحديد والنار، ولكن غاريبالدي أبى وحده أن يذعن لهذه النهاية الذليلة، فقرر الإنتقال بفرقته وأسرته إلى البندقية وفينيسيا، ليستأنف كفاحه في سبيل تحرير الشعب.

وما أقبلت سنة ١٨٥٩ حتى حانت الفرصة التي طالما تمناها «غاريبالدي٩.. إذ أعلن نابليون الثالث الحرب على النمسا، وهب الشعب الإيطالي بقيادة السياسي العظيم «كافور» لتحرير نفسه من النير النمسوي الثقيل، وسرعان ما دعاه «كافور» وعينه قائداً للقوات الإيطالية الشعبية في جبال الألب. وحمى وطيس المعارك بين الإيطاليين والنمسويين، ولمع اسم «غاريبالدي» في جميع الميادين بفضل ما أبداه من ضروب الجرأة والبسالة والخبرة بفنون القتال.

ولم تجد النمسا مناصاً من الجلاء عن «لومباردي» التي قاد غاريبالدي صفوف المقاتلين من أبنائها الأحرار، وعلى أثر ذلك سارع على رأس فرقته إلى صقلية لتحريرها من حكم الطاغية فرنسيس بن فرديناند الثاني، وسارع الصقليون جميعاً إلى الإنضواء تحت راية محررهم المحبوب، وكلل جهاده بالفوز المبين. وأصبح الشعب الإيطالي كله يهتف باسمه ويمجده مشيداً ببطولته، ولو أنه شاء في ذلك الحين أن يكون دكتاتوراً لإيطاليا لبايعه الشعب على ذلك بالإجماع، ولكنه آثر أن يعود إلى حياته البسيطة الهادئة في جزيرة «كابريرا» بعد أن حرر صقلية وأسلمها

إلى رعاية «فيكتور عمانوئيل» ملك إيطاليا في ذلك الحين!.

## إنتصار الحرية

بقى «غاريبالدي» فترة غير قصيرة يترقب أمر الملك بالزحف على روما وإعلانها عاصمة للبلاد، ونفد صبره أخيراً، فتولى هو نفسه أمر ذلك الزحف، على رأس ثلاثة آلاف من جنود فرقته المشهورة. وشد ما كانت غضبة الشعب حين تصدى الملك لوقف ذلك الزحف خشية إغضاب فرنسا، وأرسل قواته الملكية فأحاطت بالفرقة الزاحفة وأسرت قائدها، بل قائد جهاد التحرير، ولم يسع الملك إزاء ثورة الشعب إلا أن يطلق سراح غاريبالدي من السجن الذي وضع فيه، فعاد إلى حياته بالجزيرة، ثم زار إنجلترا في سنة١٨٤٦ فقوبل فيها بأبلغ الحفاوة والترحيب. وما كاد يعود من رحلته حتى عاودته فكرة الزحف على روما وما لبث أن حاول تنفيذها للمرة الثانية في سنة١٨٦٧, ولكن الحظ خانه في هذه المرة أيضاً، وإنتهى الأمر بأسره والزج به في السجن من جديد!.

وأخيراً، قدر لأحلام غاريبالدي أن تتحقق فجأة، فحاقت الهزيمة بجيوش نابليون الثالث في «سيدان٨ وإنسحبت الفرقة الفرنسية من روما، فدخلها الملك فيكتور عمانوئيل، دون أية مقاومة، وأعلنها عاصمة لإيطاليا!.